دور الصوفية في التربية

عصمت دندش*

من هم الصوفية؟ ما المقصود بالتربية؟

يقول عبد الواحد بن زيد هم «القائمون بعقولهم على فهم السنة، العاكفون عليها بقلوبهم، والمعتصمون بسيدهم من شر أنفسهم». والصوفي قدوة المجتمع الإسلامي، ولا يصح للاقتداء من يجهل علوم الشريعة وآدابها، فمن يحفظ القرآن ويكتب الحديث ولم يتفقه في الدين لا يقتدى به. وقال أبو النصر أباذي : «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك البدع والأهواء وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك اتباع الرخص والتأويلات»[1]. وقال الجنيد: «ما أخذنا التصوف من القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات. وقال أيضاً : «إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها»[2].

ولم يكن التصوف مجرد سلوك لقوم زهدوا في ملذات الحياة وأقبلوا على العبادة والذكر في الربط والزوايا بقدر ما أصبح فكراً وممارسة بين جماعة من العلماء والنساك بحثاً فيما أصاب المجتمع من علل نفسية وانحرافات اجتماعية، ومشاكل سياسية عمت المجتمع بعد أن انتشر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. وعندما خشي

---

* أستاذة بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس - الرباط

1 - ابن عباد الرندي : «الرسائل الصغرى»، ص 56، نشر بولس نويا.

2 - ن. م. ص 82.

العلماء المتصوفة من هذا الطوفان الذي لا يستطيعون له رداً أو منعاً ابتنوا أو لجأوا إلى الربط والزوايا يعملون ويجاهدون في تكوين طائفة جديدة تتشرب بالعلم والإيمان والسلوك الطيب عن طريقهم.

ولم تكن هذه الربط تقوم فقط على التلمذة أو التربية بل وعلى الصحبة، فتكونت صلات متعددة ومتنوعة ربطت بين المتصوفة في أنحاء البلاد، خصوصاً وأنهم اتخذوا من القفار والجبال والمعمور أماكن رياضتهم في التعليم والتعبد. وكانت تربية الصبيان أو رياضة الصبيان كما سماها الغزالي في المقام الأول «فرياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوِّد الخير وعلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب»[3]. وكتب أحد الشيوخ إلى بعض مريديه يحض على تعليم الصبيان والإكثار منهم وينصح بأن يتولى جميعهم بنظره ورأيه حتى لا ينصرف الصبي إلا وقد كتب وقرأ وأقرأ غيره إذا أمكنه[4].

وتربية الصغير والعناية به منذ ميلاده، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، نظيفة المظهر والمخبر، عفة اللسان واليد. ويعلم الطفل منذ صغره آداب الأكل، فلا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لايبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده وثوبه، وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات، ويقبح عنده كثرة الأكل، ويطعَم بالطعام الخشن[5].

والقرآن الكريم هو أول العلوم التي ينبغي أن يعلمها انطلاقاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيركم من تعلم من القرآن وعلمه». وقال سبحانه : «ما فرطنا في الكتاب في شيء»[6]. فالقرآن هو الأساس الذي تدور حوله فروع العلم الأخرى، ويتعلم شيئاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحاديث الأخيار، وحكايات الأبرار

---

3 - «الإحياء» للغزالي، جـ 3، ص 72.

4 - «مفتاح السعادة» لابن العريف، تحقيق د. عصمت دندش، ص 150.

5 - «الإحياء»، جـ 3 ص 72

6 - سورة الأنعام آية 6.

والصالحين، ويُحفَظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق والهوى وأهله حتى لا تفسد نفسه وهو في هذه السن.

ويتعلم الصبيان الصلاة والوضوء لها وعدد ركوعها وسجودها والقراءة فيها، والتكبير والإحرام والسلام، ويتعلمون الدعاء ليرغبوا إلى الله عز وجل، ويعرفهم عظمته وجلاله ليكبروا على ذلك، فالصلاة مع أنها عبادة فيها ركوع وسجود لا تخلو من الدعاء، وقد جمع سبحانه بين العبادة والدعاء في فاتحة الكتاب «إياك نعبد وإياك نستعين». فالجمع بين وجوب تعليم الصلاة والدعاء والقرآن ليس غريباً، لأن هذه الأمور الثلاثة تجمع بين الفكر والوجدان والعمل، وترمي إلى غرض واحد هو معرفة الله معرفة صحيحة كاملة والإيمان به إيماناً صادقاً، ولا يتم ذلك إلا بالعبادة والحمد والشكر والتسبيح والالتجاء إليه بطلب الهدى والرحمة وكشف المصيبة والغمة. قال سهل بن عبد الله التتري : «كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي يوماً : ألا تذكر الله الذي خلقك، فقلت كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معي، الله ناظري، الله شاهدي. فقلت ذلك ليال ثم أعلمته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات. فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلته، فوقع في قلبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال خالي : احفظ ما علمته ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي يوماً : يا سهل من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية»[7].

من خلال حديث سهل نتعرف على كيفية رياضة الطفل على خشية الله، وتربيته منذ نعومة أظفاره بالتدريج من السهل إلى الصعب حتى يتعود ويألف. ويجب أن يشجع الطفل إذا عمل عملاً محموداً، أو أظهر خلقاً جميلاً، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك، أو أخطأ في بعض الأحيان أو الأحوال مرة واحدة، فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك سره، ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثل فعله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً

---

7 - «الإحياء» جـ 3 ص 74.

ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس. ولا تكثر عليه القول بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه[8].

والتصوف نظافة الظاهر والباطن، وسلوك طيب مع الخالق والمخلوقين، فيعلم الطفل النظافة والسلوك الحسن مستشهدين بآيات الذكر الحكيم ومتأسين بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيعودُ الطفل ألا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل. ويعلَّم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام، ويمنع أن يبتدئ الكلام، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً وأن يعود أن يقوم لمن فوقه، ويوسع له المكان، ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ويمنع من مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء.

وإذا كان الصبي يؤدب في الحضرة (المسيد - الكتاب) فينبغي أن يسمح له بعد الانصراف منه أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، لأن منع الطفل من اللعب وإرهاقه بالتعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه. ويعودُ المشي والحركة والرياضة في بعض النهار حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما إلى صدره. ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطعمه أو ملبسه أو لوحه ودواته بل يجب أن يتعود التواضع والإكرام لكل من صاحبه أو عاشره. ومن الأمور المهمة لرياضة الطفل تعويده على طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب أو أجنبي، وأن يتعلم كيف ينظر إليهم بإكبار واحترام، وأن يترك اللعب بين أيديهم.

يجب عدم مسامحة الصبي في ترك الصلاة والطهارة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان حتى يتعود على صيام الشهر فيما بعد ويخوَّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا نشأ على هذه الأمور وتعودها صغيراً، كبر وقد

---

8 - ن. م. ص 73.

تشربت نفسه بالسلوك الطيب وخشية الله، فالصبي خلق قابلاً للخير أو الشر، وأبواه يعودانه على حب الخير. قال صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة ...»، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وكانت بعض الزوايا تكثر من الأوراد والأذكار وقراءة رسالة أبي زيد وحكم ابن عطاء، وبلغ الإقبال على الزوايا من الصغار والكبار العدد الكبير حتى أن المنتظمين في إحدى الزوايا بلغ ما ينيف على الألف من حملة القرآن ولا يفتر فيها العلم كل يوم[9].

وكان هؤلاء العلماء المتصوفة يحرصون على تعليم النساء والصغار والخدم مبادئ العقيدة وأركان الإسلام، وقواعد الإحسان، وقد ذكر ابن عسكر في دوحته أن زاوية الهبطي في مدشر معاتب بالجبل الأشهب لم ير أحد من الرجال والنساء بزاويته إلا ويكون تالياً لكتاب الله، أو ذاكراً لأسمائه أو متعلماً لمعرفته، وقد سار على نهجه ولداه وزوجته آمنة بنت حجو التي نشأت في زاوية أخيها أبي القاسم بن حسان، فكانت تعلم بنات جنسها الصالحات الفقه والحديث خاصة صحيح مسلم، وتعطيهم دروساً في التصوف وتعلمهم الأذكار[10].

ولا ينكر فضل الزاوية الدلائية والناصرية والوزانية والشرقاوية وغيرها من الزوايا التي حظيت بعدة دراسات جامعية[11] فقد كون شيوخ هذه الزوايا أجيالاً من الصالحين والعلماء، وقامت بتربية عدد كبير من الأطفال وعلمتهم القرآن الكريم. وفي رسالة لأبي العباس بن العريف إلى أحد مريديه وهو يوسف الأبار يوصيه بأن يعلم الأطفال أخلاق الديانة من الحياء والسخاء والتواضع وذكر فضائل الفقر وعيوب الغنى ونحو ذلك، يلقيه إليهم كلمة كلمة وينبههم عليها وقتاً وقتاً، ويذكره بأنه إذا حضرته حالة من مولاه من بكاء ونحوه فلا يستره عنهم وليأخذ معهم في بعض أوقاته من العشيات فيما أمكنه من الدعاء وفيما يحضره من حكايات العباد والزهاد الصالحين والعلماء تحبيباً منه للسلف الصالح عندهم، وإحياء لما درس من ذكرهم وآثارهم وتذكرة

---

9 – د. محمد حجي : «الحركة الفكرية في المغرب على عهد السعديين» ص. 444.

10 – ن. م. ص. 476.

11 – انظر رسالة د. محمد حجي «الزاوية الدلائية»، البوكاري : «الزاوية الشرقاوية (زاوية أبي الجعد)»، «التصوف والمجتمع» د. عبد اللطيف الشاذلي، ودراسة د. محمد مفتاح ود. أ. الصغير.

لنفسه[12].

ولم يكن يُكتفى بالقرآن والأذكار في هذه الزوايا بل كانت بعض الزوايا تدرس النحو والصرف والطب، ولم يكن التعليم بها يقتصر على العلوم الشرعية، وكانت بعض الزوايا تنتهز فرصة مرور أحد العلماء بالمنطقة أو زيارة الزاوية لكي تستفيد من علمه، فيجتمع إليه طلبة العلم من أهلها أو من المناطق المحيطة بها، فيعوض هؤلاء العلماء الزوار طلبة هذه المناطق النائية مشقة الترحال والنزوح إلى الحواضر الكبرى. يقول الفقيه النحوي والطبيب الماهر عبد القادر بن شقرون المكناسي إن شيخ زاوية أبي الجعد الشيخ محمد الصالح طلب منه البقاء معهم مدة لكي يستفيد منه الطلبة، فقال له : «هل تستطيع أن تمكث عندنا وقتاً تدرس لنا بعض العلوم النحوية التصريفية، والكتب النافعة الطبية»، فقلت له : «يا سيدي نمتثل أمرك ونغتنم بركتك وبرك»[13]. وقد عرف عن الشيخ محمد الصالح أنه كان شغوفاً بالعلم والتعليم مقدراً لأهله وكان لا يرى إلا والكتاب بين يديه وطلبة العلم دائرون به ومحلقون عليه وهو جالس للتدريس والإقراء والتذكير والتحذير والوعظ والإغراء[14]. وكان يقول : «فقر بلا علم فضيحة ومكر وخديعة». ويقول : «جعل الله لكل ولي جنة يتستر بها في وقته، وأنا جنتي هي العلم ومرافقة العلماء والاشتغال ببث العلم»[15].

ولم تكن الزوايا والربط تعتمد على دخل ثابت أو أحباس جارية للإنفاق على التربية والتعليم، ولكن رجال القبائل كانوا يقدمون لها ما يكفي لمؤنة الأساتذة والمتعلمين في شكل أعشار وهدايا وذبائح. وقبائل سوس من أكثر قبائل المغرب اعتناء بالعلماء والطلبة وأوفاها التزاماً بالإنفاق بكميات محددة في أوقات معلومة لا تكاد تتخلف عنها «يأتون بثلث أعشارهم إلى المدرسة لمؤنة من فيها، ويدفعون من عندهم سنوياً عن كل كانون صاعاً من الحبوب (نحو 7 كغ) وإناء من إدام (نحو لتر وربع) من السمن أو زيت الهرجان»[16]. وكانت هناك بعض الزوايا التي تقع في مناطق خصبة مثل التي على ضفاف أودية سوس وأم الربيع

12 – ن. م. ص 193 وانظر الهوامش.

13 – د. البوكاري : «الزاوية الشرقاوية (زاوية أبي الجعد)» ص. 206.

14 – ن. م. ص. 193 وانظر الهوامش.

15 – البوكاري، ن. م. ص. 192–193.

16 – المختار السوسي : «خلال جزولة» جـ 4 ص. 20–21.

وسبو أو في مناطق جبلية غنية حيث تكثر أشجار الزيتون واللوز والجوز والزعفران، كزاوية محمد بن ويسعدن، فقد ظل هذا الصوفي العالم يدرس في زاويته ويعلم الطلبة والمريدين والزوار مدة أربعين عاماً، وكانت تكون في زاويته سبعمائة طالب مرتبين للقراءة[17]، وكما كان يحدث في الزاوية الدلائية في حدود الأطلس المتوسط حيث تكثر الغابات وقطعان الماشية، فقد أوت هذه الزاوية طوال قرن كامل آلاف الطلبة والمريدين وغذت عقولهم وبطونهم[18].

أما المريد فتمر تربيته بعدة مراحل، وكل مرحلة يلزمها نوع خاص من الرياضة، فهناك فرق بين تربية المبتدئ والذي سلك شوطاً ولا بد أن يكون الشيخ قد سلك الطريق حتى وصل إلى المنتهى حتى يأخذ بيد السالك.

ويشترَط في المريد استعدادات تؤهله لسلوك هذا الطريق الوعر والتي عرفت بآداب المريد، وقد حدد الصوفية في هذا الباب خمسة وعشرين : خمسة في حال الغيبة، وهي المراقبة نحوه، والافتقار إليه والتواضع، والاستمساك بعنايته والمداومة على ذكر فضائله في قلبه بالتعظيم، وخمسة في حال ذكره : وهي النظر إليه، والرجاء فيه والاستنصار ببركته، والنظر فيما بينها من العقيدة، وخمسة في حال الصحبة : وهي مداومة الحب، ومداومة الشوق، والحمق نحوه والانذهال من الاشتياق إليه[19].

وينبغي للمريد أن يستعمل حسن الأدب مع كل من اتصف بعلم أو دين، فلا يرد عليهم قولاً ولا يعيب عليهم فعلاً إلا بإذن من الشرع على علم محقق منه، ولا يظن بأحد منهم ظن السوء إلا إذا حصل على يقين من أمره، وإذا رأى كلاماً لبعض أهل عصره أو غيرهم أو تعرف فعلاً على أفعالهم فليعوض على مقتضى الكتاب والسنة على مذهب أهل الظاهر أو على مذهب أهل الباطن، فإن وافقه فحسن وإلا طلب له تأويلاً صحيحاً، فإن وجده فحسن، وإلا فليسلمه له، إلا أن يقطع عليه بمخالفة فليرده حينئذ، وإذا كان مما لا يعنيه فلا يأخذ في ذلك بإثبات ولا نفي ولا تصحيح ولا إبطال، وليتأدب بما أدبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قال : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

---

17 – د. حجي : «الحركة الفكرية» ص. 129.

18 – د. حجي : «الزاوية الدلائية» ث 71، 130.

19 – عبد اللطيف الشاذلي : «التصوف والمجتمع» ص. 143.

وقد شغلت مسألة وجوب الشيخ للمريد البعض في كل وقت وأهميته، وكانت هذه المسألة تثار من حين لآخر هل يحتاج المريد إلى شيخ يرشده في سلوكه، أو يكتفي بالكتب، واتخذ هذا الموضوع أبعاداً كان لها صدى في الأندلس والمغرب في آخر القرن الثامن الهجري بعد المناظرة التي حدثت بين متصوفة الأندلس في غرناطة، وانقسم المتخاصمون إلى فريقين واحتج كل فريق بحجج لم ترفع ما بينهم من خلاف وتجاوز بالجدال القولي إلى الاشتباك بالأيدي والتضارب بالنعال، مما جعل البعض يكتب إلى علماء المغرب قصد الفتوى وكان على رأس هؤلاء أبو إسحق الشاطبي الذي أرسل بوجهة نظر الفريقين إلى علماء فاس من فقهائها المفتين أبو العباس القباب، وابن عباد الرندي، وابن محمد الفشتالي، واشترك بالرأي فيها أبو زيد بن خلدون، وقد أفتى كل منهم برأيه واختفظ الونشريسي بالرد الذي أرسله القباب. وذكر رد ابن عباد الرندي في إحدى رسائله في الكتاب المنشور بعنوان «الرسائل الصغرى»، بينما تمخض الأمر بالنسبة لابن خلدون عن كتابه القيم «شفاء السائل» الذي قام بتحقيقه الممتاز المرحوم ابن تاويت الطنجي، وقد اتفق الجميع على أهمية وجود الشيخ بجانب المريد خصوصاً في مرحلة مجاهدة الاستقامة ومجاهدة الكشف والاطلاع.

ثم توالت التآليف وكلها تتعرض لأهمية الشيخ المريد، ولكن ما حدث في آخر القرن الثامن هو أن التصوف الذي لم يعرف في تاريخه الطويل بين المسلمين أنه كان خاضعاً للمذاهب الفقهية التي يخضع لها المفتون بمعنى أننا لم نعرف تصوفاً مالكياً أو شافعياً أو حنفياً أو حنبلياً كما عرفنا ذلك في غيره من المذاهب الفقهية، ولكننا عرفنا تصوفاً إسلامياً انضم له الناس من أتباع المذاهب جميعاً[20]. لذلك كانت مشاركة ابن خلدون لها طبيعة خاصة لأنه الفقيه المفتي عالم التاريخ والفلسفة والأديب. وقد ظهر الفرق واضحاً في إجابة كل من أبي العباس القباب الفقيه المفتي الملتزم وابن عباد الرندي العالم المتصوف وابن خلدون، فكانت فتوى ابن خلدون التي تمخضت عن «شفاءالسائل» أكثر شمولية وإحاطة وبينت أهمية الشيخ وأنه لا بد منه. وقد روي عن أبي زيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. ويقول ابن العريف : ينبغي أن تعرف أن طريق الحق في الديانة لا يسلكها الواحد إلا وهو شيطان وطريقه طريق باطل، ولم أجز في شيء أن العبد يتوجه

---

20 - ابن تاويت «شفاء السائل».

إلى الطريق وحده فيسلكها وحده فيبلغ الغاية وحده والعلم يخالف هذا أيضاً ويستبعده فلا بد من مسموع منه مسؤول عن موضع القدوة في مسائل الظاهر ومسائل الحقائق جميعاً والمسموع منه إما عالم وإما صاحب[21].

وابن العريف[22] كان يؤكد على دور الشيخ في تربية المريد وأهميته في كل منزلة من منازل التصوف، حتى لا يضل المريد ويسلك طريقاً فيه هلاكه، ولا يمكن لمريد أن يصل اعتماداً على نفسه أو على قراءته، يقول : فمن استغنى عن القدوة فتركها فقد العلم ومن فقد العلم فقد الدلالات، ومن فقد الدلالات تحير فتخلف وسلك بنفسه، ومن سلك بنفسه فكوشف كوشف بنفسه، ومن كوشف بنفسه عجز عن مشاهدة ربه وخالقه ولم ير إلا نفسه، ومن لم ير إلا نفسه عظمها، ومن عظم نفسه استحق ما سواها فيكون تلفه، لأنه في ظاهره في أعلى عليين وبحقيقته وهو الكبر على العلماء واستحقار الرفقة والرفقاء في أسفل سافلين. والشيخ الذي يرجع إليه كل سالك لهذا الطريق إما شيخ تعليم وتربية أو شيخ تعليم فقط. وشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس، أما من كان وافر العقل منقاد النفس فلا يحتاج إلى شيخ تعليم، وتحصيل العلم يقتضي الصبر على مشقة الدرس والتحصيل وبذل الجهد في طلب العلم وتبجيل العلماء وتصاغر طالب العلم لهم، وعليه تحصيل المعارف الدينية أولاً في الجد في طلبها فيأخذها من علماء الشرع والفقهاء وأهل الحديث والتفسير، فمنهم ينال العبد مصباح شرع ربه، فيستضيء في عبادته ومعاملته مع الخلق والخالق.

وشيخ التعليم هو الذي ينصح بقراءة كتب معينة في التصوف لأن الاستفادة منها لا تصح إلا إذا كان صاحبها من أهل العلم والمعرفة ومن يصح الاقتداء به، وتكون موافقة لظاهر الشرع، وحتى تكون استفادة المريد منها واضحة، فكان ينصح بقراءة كتب أئمة القوم ككتب المحاسبي والسلمي والقشيري وابن طالب والغزالي والسهروردي والشيخ رزوق، وكذلك ما تفرق من كلام أئمتهم في الكتب والدواوين واشتهر نقله بين علماء المسلمين.

أما الشيخ المربي فهو يلزم المريدين بتهذيب أخلاقهم ورياضة

---

21 – السهروردي : «العوارف» ص. 85.

22 – ابن العريف ص. 58.

نفوسهم بالدخول في الخلوة وملازمة الذكر الذي يلقنه لهم، والتقليل من الطعام والكلام والنوم، إلى غير ذلك من الأحكام التي يلتزمون بها مع الشيخ المربي، فإذا أتموا هذه المرحلة انتقلوا إلى أخرى إلى مرحلة العمل بما تعلموه حتى يرثوا ما لم يكونوا يعلمونه أي معرفة الدقائق ومعرفة حقائق النفس ومعرفة دقائق بقية مراحل الطريق، ويكون ذلك بصحبة الشيخ.

ويقول السهروردي : واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام فأوان الارتضاع لزوم الصحبة، والشيخ يعلم وقت ذلك فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه، قال تعالى: «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض حديثهم فأذن لمن شئت منهم».[23] وأي أمر جامع أعظم من أمر الدين، فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأنه آن أوان الفطام وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى بعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله الإعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى[24].

والشيخ كالطبيب يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته، فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وإذا كان مشغولاً بمال حرام أو مقترفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه

---

23 – «الرعاية لحقوق الله عز وجل»، للمحاسبي، و«طبقات الصوفية» السلمي، ورسالة القشيري وكتاب «قوت القلوب» لأبي طالب، وكتاب «الإحياء» للغزالي، و«عوارف العوارف» للسهروردي وكتابا الشيخ رزوق «قاعدة المريد»، و«النصيحة الكافية».

24 – السهروردي ص. 85.

نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه وإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزة النفس لا تنكر إلا بالذل، ولا ذل أعظم من ذل السؤال، فيكلفه بالمواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعزة نفسه.

إذاً لا بد من الشيخ القدوة الذي يبين للسالك الطريق ويعرفه بما يقرأ وما يجب عليه أن يتحاشاه في القراءة ولا يكون كحاطب ليل يقرأ كل ما وقع تحت يده أو يعتمد فقط على الكتب، فالمكتفي بالكتاب عن الشيخ قبل البحث والجد في طلبه ليس بفقيه، ويجب أن يتعلم أن العلم في صدور العلماء يبقى ببقائهم ويفنى بفنائهم، ولأن العالم حي بحياة تسري، وأما الكتاب فناطق بصمته نطقاً لا يسمعه إلا حي، ولا حياة قبل مطالعة الكتب إلا لمن عاش بحياة معلم حق وثبت عن الرسول (ص) قوله : «ولكن يقبض العلم بقبض العلماء»[25].

25 – الغزالي جـ 3 ص. 61 – ابن العريف، م.س.